الفصل التاسع

أفكار حول الغزو الثقافي

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل التاسع

أفكار حول الغزو الثقافي

بعد أن مررنا على بعض التعريفات التي تعلقت بالغزو الثقافي، وبعد أن تناولنا العديد من مفاهيمه وقضاياه، سوف نحاول خلال صفحات هذا الفصل أن نركز على بعض المفاهيم التي تحيط بهذا « الغزو الثقافي » الذي علينا أن نتعايش معه، وحتى نفعل ذلك فإنه من المحتم علينا أن نعيه جيداً ، ونعي خطورته، وسوف نركز ما نقول ـ إن شاء الله ـ في عدد من النقاط.

أولاً : ابتلاء معظم بلاد المسلمين به :

أصبح من المسلم به ـ الآن ـ أن بلاد المسلمين كلها ـ تقريبا ـ واقعة تحت مطرقة الغزو الثقافي، بصورة أو بأخرى، سواء شعر به المسلمون وتنبهوا له ، أو غفلوا عنه ولم يتيقظوا بعد لمخاطره، أو أنهم ربما عرفوا بوجوده بينهم، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويتعامون عن نتائجه، أو أنهم ـ كذلك ـ يدرون به ويتحدثون عنه، ولكنهم لا يعرفون كيف يواجهونه ولا كيف يتعاملون مع عناصره.

ومن بلد إسلامي لآخر تختلف الصور وتتفاوت ، ففي بعضها يتضح هذا الغزو في مظاهر السير وراء الغرب، في العادات والتقاليد ، وفي الملابس والموضات، وفي بعضها الآخر اقتبست القوانين الوضعية للدستور، وأهمل العمل بدستور الأمة المفترض والذي هو القرآن الكريم، بينما درست القوانين الوضعية لطلاب كليات الحقوق بكثافة شديدة، وذراً للرماد في العيون، أو ربما خداعًا للنفس، وضعت ساعة أو ساعتان في مقررات للشريعة الإسلامية.. [*]!!

(*) يمكن ـ في هذا المجال ـ مراجعة كتاب المؤلف : «التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٣هـ.

وفي البعض الثالث اتضح الغزو الثقافي وآثاره في مناهج التعليم وخططه حتى إن اللغة الأجنبية ـ الإنجليزية عادة ـ طغت على مقررات الهوية الإسلامية واللغة العربية ، حتى لطلاب أقسام الإعلام، وحتى لمدرسي اللغة العربية ، ومن المعروف أن المعلمين والإعلاميين هم الذين يتولون توجيه الأمة وتربية أجيالها الصاعدة.

وفي جميع الدول الإسلامية ـ بلا استثناء ـ طغت البرامج التليفزيونية المستوردة على البرامج الوطنية أو المحلية بكل ما فيها من قيم غير قيمنا، وعادات غير عاداتنا، وتقاليد غير تقاليدنا، وحتى حينما حاولت بعض بلادنا إنتاج بعض البرامج وجدت أن ما أنتجوه جاء في معظمه تقليداً ممسوخًا لما استوردوه، مما جعل الناس ينصرفون عنهم، وأصبحوا أسرى لذلك المستوى الهابط والخطير من الإنتاج التلفزيوني الذي صار يشد أبناء مجتمعاتنا الإسلامية لساعات طوال.. ربما بلا حصر ولا عدد.. !!

ثانيًا : استدعاء الغزو الثقافي :

من الأمور العجيبة أن بلاد العالم الإسلامي هي التي تستدعي ذلك الغزو الثقافي إلى أبنائها ، إذ هو ليس مفروضًا عليها بالقوة، كما كان الغزو المسلح قبل ذلك ، وإنما هي التي تجلبه إلى ديارها.. وباختيارها. ويصف «التركي» هذه الظاهرة بأنها « جد عجيبة.. وغريبة .. ومذهلة » ، أي ظاهرة استدعاء الغزو الثقافي » ، وبسخرية لاذعة ومعبرة يطلق عليها: « دفع الإيجار للغزاة مقابل غزوهم لنا » ، إذ من المعروف أن معظم المجتمعات الإسلامية تستورد أكثر من ٧٠٪ من مادتها الإعلامية، سواء كانت هذه المادة برامج أم مسلسلات أم أفلامًا ، أم تقارير إخبارية. ومن المعروف أن منتجي ما يستورد العالم الإسلامي ليسوا على ديننا ، ولا على فكرنا، وبالتالي علينا أن نتوقع ، بل وأن نعرف ما ينتجون [*].

(*) عبد الله بن عبد المحسن التركي، مرجع سابق.

إن لهؤلاء المنتجين والمصدرين عقائدهم وأفكارهم، كما أن لهم ثقافاتهم التي تربوا على أساسها، وبالتالي فمن العسير أن نحملهم على أن يفكروا كما نفكر. ونفي قدرتنا على ذلك يترجم ـ لفوره ـ إلى مسلمة لا جدال فيها وهي أن أولئك المنتجين إنما يخدمون فكرهم وثقافتهم ، وبالتالي يخدمون أغراضهم السياسية والاقتصادية، وهم يكتبون القصة، ثم وهم يخرجونها في هذا الشكل الإعلامي أو ذاك، ثم من بعد ذلك وهم يصدرونها إلى المستهلكين في المجتمعات الإسلامية وهذه الصادرات ـ على وجه اليقين ـ ضرب من ضروب الغزو الثقافي ، سواء أقصد المصدر الغزو وتحراه، أم أنه قد عبر تلقائيا عن ثقافته وفلسفته وواقعه.

ثالثًا : كثرة مؤسسات الغزو الثقافي :

من مخاطر الغزو الثقافي أنه لا يمكن نسبته إلى جهة واحدة تقوم به ، أو تخطط له، وإنما هناك عشرات وعشرات من الجهات والمؤسسات « فعشرات الأجهزة، كما يقول « حسان » : شرقية وغربية، سرية وعلنية، حكومية وأهلية، دينية وإلحادية، عسكرية ومدنية ، تجمع صفوفها، وتحشد قواها ، لغزونا من الداخل ، بعد انحسار مرحلة الغزو من الخارج، ومع أن الغزو من الخارج ليس مستحيلاً، وأفغانستان خير دليل على ذلك وشاهد، [*] إلا أن الغزو الثقافي أكثر استقراراً ، وأرسخ دعائمًا، وأعتى نفوذاً، وذلك بدون إبرار جوي، أو إحراج دولي.

(*) حينما كتب د. حسان محمد حسان كتابه « وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي » عام ١٤٠١هـ، كان الغزو الشيوعي لأفغانستان على أشده، أما اليوم، وبعد مرور حوالى خمسة عشر عامًا ، فالأساليب هي الأساليب.. لم تتغير ولم تتبدل، بل إنها زادت اتضاحًا، وما عاد هناك إحراج أو حياء، بل إن الأمر صريح وواضح وضوح الشمس ، ويكفي أن ننظر لما يجري على أرض البوسنة والهرسك من مذابح مروعة للمسلمين على أرضهم، زاد ضحاياها حتى كتابة هذه السطور ليقتربوا من نصف مليون، وأهل أوروبا وأمريكا وروسيا يتفرجون ، بل إن الروس يمدون الصرب بالسلاح والتدريب، وحينما اجتاحت قوات الروس الملحدين أرض مسلمي الشيشان تقتل وتحرق وتدمر وتسرق ما تحرك الغرب، بل إنهم قالوا بأن ذلك أمر داخلي يخص الروس وحدهم، بل ان بعضهم طالب الروس بسرعة الانتهاء من هذه القضية حتى لا يمتد شررها إلى باقي جمهوريات الاتحاد السوفييتي الإسلامية..!!

obeikandi.com

رابعًا : الغزو الثقافي لا يقدم لنا إلا القشور :

إن البعض ـ للأسف الشديد ـ بربط بين الحضارة.. والتقدم .. والمدنية، وبين البعد عن الدين ، وعن جذور التراث الأصيلة، وكذا عن تقاليد الماضي العريق ، فالتدين عند ذلك البعض.. رجعية، والتمسك بالتقاليد .. تخلف..!!

أما الجري وراء التافه من قشور الحضارة الغربية، والاقتباس منه ، والانغماس في تفاهات المجتمعات هناك.. فحداثة.. وتجديد.. وتقدم..!! إن بعضهم يتصور أن مجرد إقامة الحفلات الراقصة الماجنة والصاخبة ، يجعل منهم متحضرين، بل ومتقدمين ، والبعض يدعو لإقامة حفلات اختيار ملكات الجمال، وتتويجهن ، بغية إزالة الحياء من وجوه بنات المسلمين، وهم لا يعلمون، أو لعلهم يعلمون، أنهم بذلك إنما يدعون إلى تخريب مجتمعاتهم وهدمها من الأساس، وكثيرون منهم قد يتصورون أن مجرد التشبه بهذه القشور السطحية التافهة يمكن أن يقربهم من مدنية أوروبا وأمريكا..!!

ولقد فات هؤلاء ـ تمامًا ـ أن المسلمين لم يكونوا متقدمين، ولم يكن لهم من ذكر في العالمين، كما لم يكن لهم إسهامات رائعة في صنع حضارة تليدة مشرقة، إلا يوم أن كانوا مستمسكين بدينهم ، عاملين بأوامره ونواهيه، وأن العالم من حولهم ، والذي أذهله تقدمهم وتفوقهم، قد وقف حيرانًا أمام هذا الانقلاب المفاجئ الذي أصاب ذلك «العربي الجاهل» فحوله إلى عالم متفقه في الدين، بل وفي علوم الدنيا، عالم مجد يسهر الليل ويصله بالنهار، طلبًا للعلم الذي حثه عليه الإسلام، بل وجعله فريضة لا هوادة في أدائها، ولا تنازل عنها. كما أن ذلك العالم قد وقف مشدوها أمام ذلك المجاهد العظيم الذي باع دنياه الفانية، واشترى آخرة وعده الله بها، سبحانه وتعالى . وهنا.. وهنا فقط.. وقف ذلك العالم، ووقفت شعوبه موقف المتعلم من ذلك الإنسان المسلم.. المؤمن .. العالم.. الورع.. المجاهد.. المبدع.. المنتج.. المتقن.. القائم بالليل، العامل بالنهار، وتلك هي بعض صفات الذين يبنون الحضارات ، والذين يقيمون صروح المدنيات، ويدفعون ـ بالتالي ـ بمجتمعاتهم في طريق العلم والرقي والتقدم.

ولو أن اليابان، في عصرها الحديث، أخذت في اقتناء قشور الحضارة والمدنية من أوروبا، كما تفعل مجتمعاتنا الآن، لما تعدت مرحلة العصور الوسطى، عصور الإقطاع التي كانت تعيشها منذ نحو مائتي عام، إنما هي كرَّست حياتها، وبالذات حياة أبنائها المبتعثين في الخارج، للبحث عن سر قوة أوروبا، وعن بواعث تقدمها ونهضتها في مطلع القرن الماضي، فكان الجهد المكثف، والجري المحموم وراء العلم والتكنولوجيا، ومحاولات اقتفاء آثارهما في كل مكان يظن أن فيه أثراً لهما على سطح الأرض، تنفيذاً لكلمات امبراطورهم الواعي الداهية « ميجي » عام ١٨٦٨م، حين نادى بذلك في خطابه يوم جلس على العرش.

ويذكر التاريخ أن أبناء اليابان كانوا يركعون تحت أقدام عمال انجلترا وألمانيا يخدمونهم، بصبر عجيب، وتفان أعجب، في سبيل أن يتعلموا منهم «سر الصنعة »، وأن يتشربوا هذا السر حتى يعودوا إلى مجتمعهم الياباني المتعطش إلى العلم والباحث عن المعرفة، بل إنهم في اليابان حين علموا بوجود دولة عربية إسلامية متقدمة ـ آنذاك ـ أرسلوا بعثة سريعة من أبنائهم إلى تلك الدولة.. مصر.. كي يقفوا على سر تقدمها، وكان ذلك عام ١٩٦٣م.. !! (*)

ويكفينا في هذا المجال أن نذكر، ونحن نقارن حال مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، مع حال اليابان، في مجال العلم والتكنولوجيا، أقول يكفينا أن نذكر عبارة مفكرنا الإسلامي الشهير « مالك بن نبي » رحمه الله رحمة واسعة، قال لرجل الحصيف : « لقد وقفت اليابان من الحضارة الغربية موقف .. التلميذ، ووقفنا نحن موقف.. الزبون » ، وشتان بين « التلميذ » طالب العلم، والباحث عن العلم والمعرفة والاستفادة ، وبين « الزبون » طالب المتعة والاستهلاك، والساعي بقدميه إلى الكسل والخمول، ومن ثم الترهل والتبلد..!!

(*) يمكن مراجعة كتاب : إدوارد د. بوشامب : التربية في اليابان المعاصرة، ترجمة المؤلف، ومن إصدارات مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٥هـ.

إن الأول يبحث عن علم ، وعن تطبيق علم ، وهما يشكلان الأساس المتين في صناعة الحضارة، وفي تمهيد الطريق ، وتعبيده باتجاه التقدم، ومن بعد ذلك يأتي الغنى والازدهار والقوة والمنعة والهيبة بين الدول. أما الثاني فيبحث عن البريق الزائف، وعن اللمعان في القشور، بينما يغيب عنه الأصل، ويعمَّى عليه الجوهر، وما عرف التاريخ أمة اكتسبت قوة ومنعة، أو حتى احتراماً بين الشعوب ـ فقط ـ بكثرة استيرادها، وبضخامة استهلاكها وإسرافها، بل إن العكس هو الصحيح، إذ أن ذلك كله مؤد للخضوع والخنوع، آخذ برقاب تلك الشعوب إلى مهاوي التبعية والذل، وليس هناك من نتائج أخطر من هذه فيما يتعلق بآثار الغزو الثقافي.

خامسًا : أثر الإعلام في حياة الأمة :

يبين « التركي » الأثر الخطير للإعلام في حماية الأمة، في مجال «الغزو الثقافي» وكيف أنه يحاصرها، ويأخذ بتلابيبها، ولا يترك لها مجالاً إلا السقوط في أحابيله، إلا من عصم الله، يقول : « إن المجتمعات الإسلامية بوغتت ، وهي متلبسة بأغلال الغزو الثقافي وآثاره بما زاد المشكلة سعة وعمقا وتعقيدا وحدة.. فقد بوغتت المجتمعات الإسلامية بتدفق إعلامي ضخم الحجم، بالغ التأثير، متواصل الطرق والدق والإلحاح ، فخوطب الطفل المسلم بما يتعارض مع فطرته، ومقومات تكوينه الإسلامية، وخوطبت المرأة المسلمة بما يجعلها نسخة مشوهة من المرأة الغربية ، وخوطبت الأسرة المسلمة بما يقوض أواصر التواد والتراحم فيها، وبما يهدم الصلة السوية بن الأجداد والأبناء والأحفاد، وخوطب المجتمع الإسلامي كله بما يضرب وحدته الفكرية، وبما يورثه فتنة في الدين، وشكا في المقومات، وبما يزلزل أمنه الثقافي وطمأنينته النفسية.»[1]

ولا يحتاج الكلام السابق لكثير تفسير، ولا لعميق توضيح، فالأوضاع من حولنا تفسره وتدل عليه، في منازلنا ، وشوارعنا، ومحلاتنا، ومدننا وقرانا، وعلى حدودنا، في علاقاتنا ببعضنا، في تنافرنا وتعاركنا، معاركنا الشخصية في العمل، ومعارك دولنا مع بعضها على الحدود، بسبب خلافات مصطنعة

(١) عبدالله بن عبدالمحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي ، مرجع سابق، ص ٦.

تافهة على تلك الحدود، في شكنا في بعضنا.. وثقتنا في الأجنبي، في سوء فهمنا وشكنا في أنفسنا وفي أهلينا، بينما ثقتنا في الأجنبي بلا حدود، في انغلاقنا على بعضنا وادعاء السرية في بعض الأمور، بينما بلادنا وأحوالنا.. وكل أوضاعنا، كتاب مفتوح، بل مكشوف ومفضوح، أمام الأجنبي، وليس هناك من أوضاع متردية أكثر من هذه، بالنسبة لآثار الغزو الثقافي، وفي تقديرنا للغير، وفي عدم احترامنا لأنفسنا وذواتنا، مما يجعلنا أمة خيرها لغيرها، ومستقبلها لا تمتلكه ولا تخطط له، طالما هي تابعة لمن لا يدينون بدينها، مع أننا مأمورون من ربنا ـ جلت قدرته ـ بغير ذلك، حيث نص القرآن العظيم على ذلك: ﴿ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم﴾.

سادسًا: تركيز الغزو الثقافي على الإنسان:

من أخطر ما توصل إليه من فكروا في قضية «الغزو الثقافي» أنهم ركزوا على الإنسان، من داخله، بحيث تزلزل شخصيته، فلا يعرف صاحب تلك الشخصية رأسه من قدميه، كما يقول المثل، لقد جرب الاستعمار حرب السلاح، والاستيلاء على الأرض، فوجد المسلمين ينتفضون مدافعين عنها بقوة وحماس، لأن الأرض بالنسبة لهم تمثل الوطن والعرض والشرف، في مصر فعلوا، وكذا في الجزائر وأفغانستان، وهم لا يزالون يفعلون في فلسطين، وكذا في البوسنة والهرسك، وجاءت حرب الشيشان لتؤكد على ذلك وتدعمه، والنتيجة المحتمة والنهائية هي هزيمة الاستعمار، والخروج من الأرض، مهما بلغت التضحيات، وعظم البذل والفداء، ومهما طال الوقت وامتد الزمن.

ومن هنا تمخضت حيل المستعمرين وأفكارهم الجهنمية عن الشكل الجديد للاستعمار، والمتمثل في تذويب شخصية أو شخصيات هؤلاء المجاهدين والمقاومين الرافضين لوجود قواتهم على الأرض.. أي أرض المسلمين، وحينما تذوب الشخصية تضيع الأهداف، أهداف الأمة الإسلامية، بينما تتحقق أهداف المستعمرين أعداء الإسلام. إن احتلال الشخصية أهم من احتلال منابع النفط،

obeikandl.com

والسيطرة على العقول أهم من السيطرة على الأسواق.[٢]

ولننظر حولنا لنرى ماذا فعل بنا الوضع الجديد، أي بعد طرد الاستعمار العسكري المسلح، وبعد تذويب الشخصية الإسلامية، وبعد تمكن الغزو الثقافي من عقولنا ونفوسنا، وجماع شخصياتنا.

أيام الاستعمار المسلح كان الأجنبي بغيضًا إلى نفوسنا ، محتقراً في عيوننا ، لا يستطيع أن يسير آمنا في مدننا وشوارعنا، ومن هنا كان يحتمي في مناطق خاصة تعزله عن مجتمعاتنا (في منطقة قناة السويس .. في حالة مصر) ، وفي معسكرات يحيطها بأسلاك شائكة، ويضع على حدودها حراسات، وأضواء كاشفة، وأسلاك مكهربة عازلة، ورغم كل ذلك وصل إليه الفدائيون الإسلاميون، ونالوا منه، وأسالوا دمه، وأقضوا مضجعه.

أما اليوم .. وبعد الاستقلال ، فقد خرج الجندي المدجج بالسلاح، وعاد إلينا بشكل آخر، عاد سائحًا، وعاد خبيراً ، وعاد أستاذاً.. ندعوه نحن، ونلح في دعوته، وحين يحضر نستضيفه ونكرمه، ونبالغ في الحفاوة والتكريم، نحجز له في أفخم الفنادق ، ونرتب له برامج للزيارة، بل ونحجز له ما هو أخطر من ذلك.. نحجز له مكانًا آمنًا عاليا في عقولنا ونفوسنا، ونطلب من أبنائنا أن يتعلموا من «حكمته»، وإذا رجوناه أن يبقى للعمل منحناه أضعاف ما نعطي النجباء من أبنائنا، فتمكنت بذلك «عقدة الخواجة» من نفوسنا، وأصبحت دالة على إحساسنا بالنقص، وعلى استشعارنا الدونية والمهانة.. على أرضنا..!!

أيام الاستعمار المسلح كانت فينا عزة، وكانت لدينا كرامة، وكان الوطن يعنينا، فخرجت من بيننا فئات مؤمنة واعية تنادي بمقاطعة الأجانب، ومقاطعة بضائعهم حتى تبور في الشوارع والمحلات، وحتى يعلموا أننا لا نقبل أن نشتري ، ومن ثم نربِّح من يقتلون أبناءنا ، ويدنسون تراب أوطاننا، وفي الوقت نفسه ارتفعت صيحات واعية تطالب بتشجيع الإنتاج الوطني، والوقوف من خلف الصناعة الوطنية ، نؤازرها ونشجعها وندعمها.

---

(٢) حسان محمد حسان، مرجع سابق، ص ١٦.

واليوم.. وبعد الاستقلال، وبعد تمكن الغزو الثقافي منا.. أين نحن من هذا؟؟ شركاتنا الوطنية والمثال من مصر كذلك ـ وخاصة شركات القطاع العام خسائرها السنوية بمئات الملايين من الدولارات، بينما الشركات الأجنبية تصول وتجول في أسواقنا، وأذواق المصممين عندهم تسيطر على عقول نسائنا وفتياتنا.. بل وشبابنا وكثير من (رجالنا)، وهي تحصد الأموال من أيدينا لتذهب بها إلى مواطنيهم هناك في الخارج.

ويكفي أن نذكر أن مصر حينما قامت فيها الثورة عام ١٩٥٢م، كانت تدين انجلترا (!!) بنحو خمسمائة مليون من الجنيات الاسترلينية، نتيجة عمل الفلاحين والعمال المصريين، ونتيجة إجادتهم وإتقانهم، أما اليوم فديوننا.. ومعنا الغالبية العظمى من دول العالم الإسلامي علامة دالة على كسلنا وإهمالنا، وتمكن الغزو الثقافي منا بحيث أصبحنا نجلس أمام الفيديو والتليفزيون بأكثر مما نمكث في الحقل، أو في المصنع.(*)

سابعًا: وصول الغزو الثقافي لجامعاتنا:

على الرغم من أن جامعاتنا في العالم العربي بها النخبة المثقفة ذات المستوى العالي إلا أن الغزو الثقافي قد وصل فيها إلى النخاع متمثلاً في إهمال اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، وخاصة في الكليات العملية، وبالتحديد: الطب والصيدلة والهندسة، وأحيانًا العلوم، حيث يجري التدريس فيها باللغة الانجليزية، وكأنما ضاقت لغة القرآن الكريم عن استيعاب المصطلحات العلمية الحديثة، وهي التي كانت لغة العلم، بل كانت اللغة العالمية في ذلك، فحتى القرن السابع عشر الميلادي كانت جامعات أوروبا القديمة مازالت تستخدم كتب العلماء المسلمين، وتعتمد عليها في شتى فروع المعرفة المختلفة، بل ويكفينا هنا أن نذكر أن «محمد علي باشا» والى مصر في بدايات

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع أن يرجع لرسالة الماجستير الخاصة بالكاتب، وهي بعنوان: «دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الريف»، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

القرن التاسع عشر الميلادي، حين أنشأ كلية الطب في مصر، وترأسها عالم فرنسي هو «كلوت بك»، كان التدريس فيها آنذاك يتم باللغة العربية، وكان ذلك عام ١٨٢٧م، أي منذ نحو ١٧٠ (مائة وسبعون عاما)..!!

لقد كان « محمد علي باشا » واعيًا جداً لأهمية إتقان اللغة العربية في المعاهد التي أنشأها في مصر ، بل وذهب في بعد نظره لهذا الأمر مذهبا لا أبالغ إذا قلت أننا نقصر عنه هذه الأيام في جامعاتنا. لقد كان يطلب من كل طالب مبتعث ، حين عودته للوطن أن يترجم أطروحته التي حصل عليها بالخارج إلى اللغة العربية، حتى يعم نفعها أبناء وطنه، وحتى لا تظل حبيسة الأدراج والرفوف لا يستفاد منها، ولا يلتفت إليها ، وما من أمة تركت لغتها، وهجرتها إلى غيرها إلا ضاعت، وأصبحت تابعة لغيرها.

ويكفي هنا أن نشير إلى أن اليابان رفضت ، بإصرار غريب، أي تعديل في لغتها من جانب الأمريكيين، على الرغم من ضربها بالقنابل الذرية في هيروشيما ونجازاكي، ولقد خضعت للأمريكيين في كل شيئ طلبوه منهم عند توقيع معاهدة السلام، عام ١٩٥٠م، ولقد قبل اليابانيون بكل شروط الاستسلام التي فرضت عليهم كأمة مهزومة ، ولكن حين وصل الأمر إلى تعديل اللغة اليابانية رفض اليابانيون ، بل وأصروا على الرفض، لأنهم كانوا يعلمون أن اللغة هي ضمير أمتهم، وهي عقلها، بل هي كيانها وذاتها من الأعماق (*).

ويقيني أنه لو كانت اليابان قد وافقت على تعديل لغتها، إرضاءً للأمريكيين، وتنفيذاً لهيمنتهم وسيطرتهم، لكانت شخصيتها قد محيت من الوجود كأمة لها كيانها، ولما كانت قد تقدمت هذا التقدم الهائل والمبدع في كل مجالات العلم والتكنولوجيا الرائعة والمذهلة التي اعترف بها، ويعترف بها ، الجميع في شرق وفي غرب ، ويكفي أنها تفوقت على الذين انتصروا عليها في الحرب، وأصبحت وهي تغزوهم في عقر ديارهم بمنتجاتها، بل إنها تضربهم

(*) يمكن مراجعة كتاب «التربية في اليابان المعاصرة» لمؤلفه إدوارد ر. بوشامب، ومن ترجمة الكاتب، مرجع سابق.

بقنابل اقتصادية لا يستطيعون لها اتقاء، بل إنها تدينهم بعشرات المليارات من الدولارات، ومن بضع سنوات والميزان التجاري بينهما (أمريكا واليابان) يميل لصالح اليابان، وبشكل مستمر وحاد.

واليابانيون يقرون ويعترفون بأن الفضل في هذا التقدم الرائع في مجالات العلم والتكنولوجيا والاختراع انما يعود للعقل الياباني الذي هو ناتج من نواتج «التربية اليابانية»، والتي هي ـ بطبيعة الحال ـ تعتمد على اللغة اليابانية ، إن هذه التربية اليابانية قد خرَّجت لمجتمعها علماء ومخترعين ومهندسين وفنيين رائعين قفزوا بمجتمعهم خطوات رائعة على طريق التقدم، مما جعله يسبق أمم الدنيا، بل وجعل المسافة بين مجتمعهم وبين غيرهم من المجتمعات تتسع أكثر وأكثر، وللعلم فإن الذي يملك السبق في مجال التكنولوجيا، يصعب اللحاق به، كما يقول وزير المواصلات الياباني السابق «شينتارو إيشيهارا Shintaro Ishihara» في كتابه الرائع، الذي أثار قضايا كثيرة جداً في الولايات المتحدة الأمريكية، ابتداءً من رجل الشارع هناك، إلى المثقفين، إلى صناع القرار في الكونجرس الأمريكي، ووزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون) ، وحتى الرئيس الأمريكي الجالس في البيت الأبيض، خاصة وأن « إيشيهارا » هذا كان قد رشح نفسه لرئاسة الحزب الديموقراطي الياباني، وكانوا يخشون في أمريكا أن ينفذ أفكاره التي نادى بها في كتابه، فيما لو نجح في الانتخابات وأصبح رئيسا لوزراء اليابان.[٣]

ثامنًا : الانبهار بالغزاة :

إذا كان المستعمرون يخططون لأنفسهم ولنا، في قضية الغزو الثقافي هذه ، بدعوى أنهم أصحاب الثقافة الأقوى والأرسخ، معتمدين في ذلك على تفوقهم العلمي والتقني، إلا أن المسلمين أصحاب عقيدة هي الأعظم عبر التاريخ، وهي التي ينبغي أن تسود بين كافة الأمم والشعوب.

(٣) Shintaro Ishihara: The Japan That Can Say No. Why Japan Will Be First Among Equales, Simon, Sehuster, New York, Tokyo, London, 1991.

وهذه العقيدة ينبغي أن تستتبعها ثقافة على نفس المستوى، من العظمة والرسوخ ، وإذا كان المسلمون قد فرّطوا في العلوم التجريبية، في فترة معينة من حياتهم، وهم ـ للعلم ـ يدفعون ثمن ذلك الآن مضاعفًا وغاليًا، نقول إذا كان ذلك قد حدث إلا أنهم لا ينبغي عليهم أن يخضعوا أو يذلوا أو يستكينوا، ولكن للأسف الشديد فإن طائفة كبيرة منهم فقدت حسها الإسلامي السليم فهانت على نفسها ، ومن ثم على الناس، وكان من نتيجة ذلك الانبهار الشديد بثقافة الغازي وفكره، وفي هذا المجال، وحول هذا المعنى ، يقول د. عبد الله التركي : « ونأسف إذ نقول إن الحضارة الغربية أطريت بإسراف في العالم الإسلامي، والإطراء أسلوب يفقد الإنسان توازنه العقدي، أمام من ، أو ما جرى إطراؤه ، ولهذا السبب، ولأسباب أخرى ، نهى الرسول ، ﷺ ، أن يطريه المسلمون ، وذلك لأن أقوامًا أطروا رسولهم ففقدوا ـ من ثم ـ توازنهم العقدي، وجعلوا رسولهم إلها أو بعض إله، ولكن مادحي الحضارة الغربية ـ في العالم الإسلامي ـ جعلوا لها ما ليس لرسول الله ﷺ.»[٤]

إن الانبهار بغير المسلمين حالة نفسية وفكرية لا تدل بحال من الأحوال على قوة العقيدة ونقاء التوحيد. ثم إن للانبهار الشديد مقتضيات في مقدمتها التقليد والمحاكاة، وقد نهى المسلمون عن تقليد غير المسلمين، ولكن حين نسيت هذه المعاني، استمر المطرون في إطرائهم للحضارة الغربية فحصل الانبهار الشديد بها ، وكان هذا الانبهار أحد مداخل الغزو الثقافي.[٥]

تاسعًا : الإحساس بالدونية :

من مآسي الغزو الثقافي الثقافي ، ومن مسبباته أيضًا أن المجتمعات المغزوة يحس أفرادها بالدونية، أمام المجتمعات الغازية، « أي أن يحس المرء بأنه ينتمي إلى حضارة أدنى قيمة وأقل وزنا من حضارة الغازي، ومما لا شك فيه أن هذا الإحساس نشأ ونما في غياب الانتماء الحقيقي والمستنير لحضارة الإسلام، ومما لا شك فيه أيضًا أن المسؤول عن هذا الغياب هو مناهج التعليم،

(٤) عبد الله بن عبد المحسن التركي، مرجع سابق، ص ٥.

(٥) المرجع السابق، ص ص ١٥-١٦.

وبرامج التوجيه والتثقيف .[٦]

ولو ترجمنا هذا الكلام السابق ترجمة عملية، وقمنا نستعرض مناهج التعليم في بلادنا الإسلامية، أو في بعضها على الأقل، لوجدنا عجبًا حقًا، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع في ثنايا هذا الكتاب، ولكن للتذكرة فقط نضع بعض الحقائق عن أوضاع المناهج في بعض بلادنا « إن خريجي كليات الحقوق في بعض جامعاتنا لا يفهمون كتابًا عربيًا واحداً في المواد التشريعية، لأن خطة الدراسة فيها تخصص عشرين ساعة في الأسبوع للقوانين الأوروبية (الفرنسية في الغالب في حالة مصر) ، بينما تخصص ساعتين اثنتين فقط.. للشريعة الإسلامية (!!) أترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا أو انجلترا.. أكانت تفعل أقل من ذلك ..؟؟!!.

إن إحدى كليات الآداب في عالمنا العربي (في جامعة بغداد في العراق.. تحديداً) تقول خطط الدراسة بها في قسم اللغة العربية بأن هناك مقرراً واحداً بعنوان « البلاغة .. والقرآن .. والحديث » ، وأن مدة هذا المقرر هي أربع ساعات، وهو يدرس في السنة الأولى الجامعية فقط، أي بواقع ساعة وثلث الساعة ، لكل علم من هذه العلوم المهمة جداً ، بل والتي بها فروع لا تكفيها ـ على وجه اليقين ـ أضعاف هذه الساعات الأربع .[٧]

المهم أنها أربع ساعات.. يدرسها الطالب في السنة الأولى.. ثم هو ينساها بعد ذلك على وجه اليقين عند التخرج، أو حتى، قبل ذلك التخرج، لأنه لا يجد لها متابعة في السنوات الثلاث التي تلي ذلك، هذا بينما يدرس لنفس الطالب، في ذات القسم «اللغة الانجليزية» بواقع ثلاث ساعات في السنتين الأولى والثانية، فيصير المجموع ست ساعات للغة المستعمرين البريطانيين التي يحلو لبعضنا أن يسبهم ويلعنهم، وذلك مقابل ساعة وثلث للغة القرآن الكريم، وذلك لمن ..؟؟ لطالب اللغة العربي الذي سيتخرج ليعمل مدرسًا لها..؟؟!!

---

(٦) المرجع السابق، ص ١٥.

(٧) محمد عبدالعليم مرسي: التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

وفي قسم الصحافة، بالكلية ذاتها (آداب جامعة بغداد) والذي سيتولى خريجوه توجيه الرأى العام في مجتمعهم ، أو هكذا يفترض ، لم نجد مقرراً واحداً ذا هوية إسلامية ، مجرد مقرر واحد فقط.. على مدار الأربع سنوات في قسم الصحافة، في بلد إسلامي..؟؟ فهل جاء ذلك مصادفة..؟؟[8] أم أن التغريب كان قد تمكن من نفوس وشخصيات واضعي تلك المقررات ، وأن الغزو الثقافي قد تمكن منهم لدرجة أذهلتهم عن هويتهم الإسلامية التي يدّعون الانتماء إليها.. ؟؟ هل لو كانت جامعة بغداد (عاصمة الرشيد) دعت لجنة من خبراء المناهج الأجانب لوضع الخطة الدراسية لذلك القسم، هل كانوا سيفعلون غير ذلك .. ؟ أعتقد أنهم كانوا سيضعون مقرراً في الإسلام .. من أي نوع، أو في هوية المجتمع المسلم الذي سيتولى خريجوه توجيه الرأي العام فيه، ولو من جانب العلم بالشيئ ، ومحاولة منهم لفهم ـ مجرد فهم ـ ثقافة المجتمع الذي يوجهونه، أو حتى ـ وذلك أضعف الإيمان ـ ذراً للرماد في العيون..!!

عاشراً : معضلة المدارس الأجنبية :

ولا يقتصر الأمر على مجرد خلو خططنا الدراسية، في بعض جامعاتنا، من مقررات الهوية الإسلامية فحسب ، وانما وصل إلى حد السماح بإقامة « مدارس أجنبية » على ترابنا الإسلامي، إن هذه المدارس معاول هدم حقيقية، وهي تعمل في عقول وشخصيات أبنائنا الذين يدخلونها ، سواء وعينا ذلك أو غاب عنا.

إنها تعمل على تغريب أجيال كاملة من أبناء الأمة الإسلامية، والمجتمع الذي يسمح بوجود هذه المدارس على أرضه إنما يعطي القائمين عليها سلاحًا من أخطر ما يمكن، ومن أفظع ما نتصور . إنهم يتمكنون ، من خلال مناهجها وبرامجها ، من تشكيل عقول الناشئة ، ومن توجيههم الوجهة التي يريدون، حتى وإن كانت ضد مصالح مجتمعهم ، بل وضد عقيدته وأمنه.

---

(٨) المرجع السابق.

ومهما تكن الدعاوي حول السماح لهذه المدارس بأن تعمل على أرض بلادنا الإسلامية فهي بلا شك تنبئ عن ضعف فادح، بل وفاضح من جانبنا ، وعن قوة وتجبر وتسلط من جانب أعدائنا. قوة وسيطرة في التأثير علينا بحيث نوافق على إعطاء هؤلاء الأجانب حق تقرير مصير أطفالنا. وقد يقال إن هذه المدارس أنشئت أصلاً لتعليم أبناء الجاليات الأجنبية الذين يقيمون على أرضنا، ولكن الواقع يقول : إن خطرها قد امتد إلى أبناء المجتمع الأصلي ، الذي هو مجتمعنا الذي سمح بوجودها على أرضه، وأنها بدأت تنشر سمومها وتنفثها بين أبناء المجتمع كله.

إن واحدا من المجتمعات العربية الإسلامية القليلة العدد جداً به أكثر من خمسة وعشرين مدرسة أجنبية ، وقد ارتفعت صيحات المصلحين في ذلك المجتمع ، في عدد غير قليل من صحفه ومجلاته، منبهة إلى خطورة أوضاع تلك المدارس على مستقبل الأبناء ومستقبل الوطن معا. إن نسبة أبناء العرب المسلمين في المدارس الأجنبية بالكويت أعلى من نسبة غيرهم من الأجانب الذين قيل إن تلك المدارس قد أنشئت أصلاً لهم، أو هكذا قيل تبريراً للسماح بافتتاحها ، وقد كتب واحد من أبناء ذلك البلد يحذر قومه من المصير المنتظر، فما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد ما ، أو إقليم ما في الشرق، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس الأجنبية بمرسليها الدينيين ، ومن تخلق بأخلاقهم، كي يمهدوا السبيل للاستعمار .. الاستعمار الثقافي والفكري، بطبيعة الحال.[٨]

ولمن يهوِّن من أمر المدارس الأجنبية، أو لمن لا يعي خطرها، نسوق إليه. وبالأرقام - رأي واحد من غلاة الاستعماريين ودعاتهم في الغرب، يقول الجنرال « بيتر كيللر »: في بداية حرب ١٩١٤م (الحرب العالمية الأولى) كان أكثر من ٥٢٠٠٠ (اثنين وخمسين الف تلميذ) يتلقون تعليمهم في مدارسنا في سوريا ، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس (لعلنا ننتبه .. !!)

(٨) المرجع السابق، ص ٧٧.

obeikandl.com

تعلن عام ١٩١٧م أن ميول جميع السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلموا لغتها، وخبروها ـ أي خبروا ثقافتها ـ على مر الأجيال.[٩]

ألم نقل في بداية هذا البحث إن احتلال مساحات في العقول والأفهام أخطر من احتلال مساحات من الأرض يهب أصحابها للدفاع عنها ضد من تجرأ واستعمرها..؟؟

إن احتلال العقول والأفهام يحوِّل طائفة أو طوائف من أبناء المجتمع من الدفاع عن وطنهم ومواطنيهم، وعن شرف الأمة وكرامتها وتاريخها وتراثها ومستقبلها إلى الدفاع عن المستعمر وعن مصالحه، وليس بعد ذلك من كارثة، والفضل في ذلك ـ إن صلح التعبير في هذا الموضوع ـ للغزو الثقافي والفكري الذي حوَّل هذه الطائفة، أو الطوائف من أبناء الأمة من صفوف إخوانهم وأشقائهم إلى صفوف أعدائهم.

ولعل التوقف عند حالة مصر ، خاصة وأن مصر بالتحديد كانت دومًا مفتاح الدول العربية، كما كانت تجربتها في التعليم الحديث هي التجربة الرائدة في العالم العربي، وقد نقلت بكاملها ـ أو كادت ـ إلى دول الخليج العربية.

إن « محمد علي باشا » الذي تولى حكم مصر بمساعدة مشايخ الأزهر وعلمائه، عاد فانقلب عليهم وضايقهم وضيّق عليهم، بل وضايق الأزهر ذاته وضيق عليه، ولم يكن عجيبًا بعد ذلك أن ينحو خلفاؤه منحاه من بعده، وأن يوسعوا على المدارس الأجنبية، بل وأن يمنحوها كل ما تريد وأكثر.. أرضًا.. ومالاً .. وصلاحيات.. واستثناءات، ولنقرأ كيف كان يدار بلد إسلامي من أكبر بلاد المسلمين، لحساب النصارى من كل بلد أوروبي أراد أن يكون له موطأ قدم في أرض الكنانة، فحصلوا على امتيازات لا يمكن للعقل أن يصدقها بسهولة، إلا أن يكون الذين منحوها قد فقدوا عقولهم (!!) وكأن هذا البلد ـ مصر ـ كانت بلا أصحاب ، وبلا أهل ، ولا عجب ، فلم يكن حكامها ـ آنذاك ـ من أبنائها

(٩) عبدالستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ، (ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤هـ، ص ١٩٩.

فعلاً، ولا كان يعنيهم أمرها ولا أمر أهلها بالتالي، حيث أعطى « سعيد باشا » راهبات الراعي الصالح آلاف الفرنكات، وآلاف الجنيهات للمدرسة الإيطالية، كما وهب (!!) للمدرسة الأخيرة ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف ذراع) من الأرض في أحسن جهات الإسكندرية.[١٠]

وكذلك منح (!!) « اسماعيل باشا » راهبات الإحسان ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة ذراع) من الأرض ، لبناء مدرسة عليها في الإسكندرية، ومقادير هائلة من القمح.. سنويًا (!!!) وأيضًا فعل نفس الشيئ للراهبات اليسوعيات، ومدرسة الأوروبيين في ميناء بورسعيد ، والمدرسة اليونانية والعازاريين والفرير بالإسكندرية، كذلك منح الإرسالية الأمريكية أرضًا بالقرب من فندق « شبرد » القاهرة ، ليقيموا عليها مركزاً ، بالإضافة إلى هبة مالية (تصوروا.. نحن في مصر .. نمنح الأمريكيين .. هبة مالية.. !!!) مقدارها ٧٠٠٠ (سبعة ألاف) من الجنيهات الذهبية.. للبناء ، كما كان يطلب من الجهات الإدارية والمحلية المصرية مد يد المساعدة للقائمين على أمر هذه المدارس الأجنبية ..!![١١]

ولعلنا هنا لا ننسى مقولة د. عبدالله التركي من أن الأمر المذهل في أمر الغزو الثقافي هو أن المغزو .. أي المعتدي عليه.. هو الذي يستدعي الغازي إلى دياره ، وأكثر من ذلك أنه هو الذي يدفع له ثمن مجيئه ، وثمن بقائه على أرضه و من ثم تخريبه عقول وشخصيات أبنائنا وناشئتنا ، أليس هذا من نكد الدهر أن يكون بيننا حكام من هذا النوع.. ؟؟

ثم لعلنا نتابع الإيقاع السريع لإنشاء المدارس الأجنبية في مصر ، لنرى ذلك الحمى الذي استباحه الأجانب ببشاعة وإجرام، في بلد الأزهر الذي قاوم الغزاة الفرنسيين، والبلد ـ كذلك ـ الذي ترتفع فيه المآذن بالآلاف ، ولكن .. وحتى نكون منصفين.. هل كان الخطأ ـ في هذا الوضع ـ خطأ الأجانب.. ؟؟!!

---

(١٠) سعد مرسي أحمد ، سعيد اسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم ، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ص ٢٩٦-٢٩٧.

(١١) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

- في عام ١٨٧٦م تأسست إرسالية راهبات الرسول Notre Dan Das Sportres كما أسست مدرسة لها في طنطا عام ١٨٨١م.

- في عام ١٨٨٠م أسست مدرسة بواسطة إرسالية راهبات المير دي ديو La Mere De Dieu، وذلك في حي بولاق بالقاهرة، كما قامت الإرسالية نفسها بتأسيس مدرسة في الإسكندرية عام ١٨٨٢م.

- أنشئت مدارس الفرير مدرسة Saint Joseph بالقاهرة عام ١٨٥٤م، ومدرسة أخرى بها، وقد أطلق عليها الملحقة، كما أنشأت مدرستين أخريين في الاسكندرية عام ١٨٧٣م، وعام ١٨٨٨م.

- بدأت إرسالية الجزويت بإنشاء مدرسة للبنات بحي المنشية بالإسكندرية عام ١٨٥٦م، ثم أتبعت ذلك بمدرسة للبنين عام ١٨٥٧م، وفي عام ١٨٦٧م توجت الإرسالية عملها بإنشاء الكنيسة بالإسكندرية في ميدان إسماعيل.

- في عام ١٨٥٥م افتتحت الجالية اليونانية مدرسة بالإسكندرية ، وفي عام ١٨٦٠م افتتحت مدرسة أخرى تضم قسمين للبنين والبنات.

- وفي عام ١٨٥٤م أنشأت الجالية الأرمينية مدرسة بجوار كنيسة السيدة العذراء بالقاهرة.

- وفي نفس الفترة أنشئت مدرسة تابعة للجالية الألمانية.

- وفي نفس الفترة أنشئت مدرسة تابعة للجالية الإيطالية. (١٢)

إن كل ذلك النشاط النصراني المحموم جرى لتغريب المجتمع المصري المسلم الذي سبق وأن هزم الحملة الصليبية ، بقيادة « لويس التاسع » ، ملك فرنسا، وقد أذلوه ومعه جنوده وضباطه، فكأنهم جاءوا ينتقمون، خاصة وقد وجدوا من يعطيهم امتيازات ما كانوا ليحصلوا عليها في أي مكان آخر بهذا

---

(١٢) المرجع السابق، ص ص ٢٩٩-٣٠٠.

obeikandi.com

الكرم (السفيه) ، خاصة حين نعلم أنه كان من بين هذه الامتيازات ـ بخلاف الأرضى والأموال والمعونات والهبات ـ أن يعفي الطلاب المصريون الذين يذهبون إلى مدارس الإرساليات (النصرانية طبعًا) من الجندية (!!!) ، أو من الاشتغال بإقامة السكك الحديدية. والطرق العامة، كما كانت هذه المدارس مستقلة تمامًا عن ديوان المدارس ، أو نظارة المعارف ، كما كان يطلق عليها آنذاك. (١٣)

وقبل أن نترك هذا الجانب الخطير ، جانب المدارس الأجنبية ، من جوانب الغزو الثقافي ، لعلنا نورد للقارئ بعض الملاحظات التي نعتقد في أهميتها وهي كما يلي :

١ـ في غمرة الحماس الغبي، من جانب حكام مصر آنذاك، لمنح الدول الأوروبية كل ما قرأناه، كانت انجلترا تعد العدة لغزو مصر عسكريا واحتلالها، وإذلال شعبها ، أي أن كل ما قدم لها ولمؤسساتها الكنسية لم يغن عنها، ولم يشفع لها، ولا ندري كيف كان يفكر الحكام الذين فعلوا ما فعلوا في حق مصر ..؟؟!!

٢ـ كانت هذه المدارس تدار بعيداً عن أي رقابة من نظارة المعارف المصرية، ومعنى ذلك أنهم في هذه المدارس كانوا يضعون من المناهج ما يشاءون، كما كانوا يدربون الطلاب والطالبات على كل ما يهدفون إليه، ومعروف أن الهدف النهائي لهم كان إخراج فئة معينة من أبناء مصر عن دينها، وتربية أفرادها بعيداً عن قيم ذلك الدين .

٣ـ الامتيازات التي كانت تمنحها هذه المدارس للملتحقين بها من الطلاب كانت تمثل عزلاً لفئة من أبناء المجتمع عن بقية زملائهم، بحيث كانوا يتربون في أحضان النصارى، ومن ثم يكونون طابوراً خامسًا لهم فيما بعد.

٤ـ توجت جهود الأوروبيين ـ دائما ـ في مصر بإنشاء الكنائس في أعقاب

(١٣) المرجع السباق، ص ٣٠١.

إنشاء المدارس.

٥. النتيجة الحتمية لتربية فئة من أبناء الوطن الواحد في ظل تعليم أجنبي مختلف عن تعليم بقية أبناء ذلك الوطن هي انقسام المجتع إلى: فئتين متصارعتين، إحداهما تحب الوطن وتدافع عنه، وأخرى تشعر بالفضل والمعروف تجاه الأجنبي، حيث هو ولي النعمة وصاحب الفضل ، ومن هنا يعمل أفرادها لصالحه، بل ولصالح العمل على وجوده بالوطن، بل وترسيخ ذلك الوجود ، والعمل على استبقائه أطول فترة ممكنة لأن وجودها مرهون ببقائه.

٦. في هذه المدارس الأجنبية ظهرت بدعة الاختلاط بين الفتيان والفتيات، في مراحل التعليم المختلفة، باعتبار أن ذلك كان صيحة حضارية جاءت إلينا من بلاد الغرب.. المتقدم..!! ولقد بدأ هذا الأمر مع أطفالنا الصغار في المدارس، بحيث أصبحوا يشبُّون عليه وكأنه هو الوضع الطبيعي وسواه شاذ ، هو التقدمي ، وما عداه متخلف..!!

وبهذا السلوك المنحرف في مدارسنا نزعنا جانب الرجولة الذي اشتهر به المسلمون الأوائل في تربيتهم لأبنائهم، وأحللنا بدلا منه ألوانا من السلوك الهابط والمنحل، بل والمتخنث أحيانًا في أبنائنا الذين يفترض أنهم سيكونون رجال الغد، كما أننا بهذا السلوك أيضا نزعنا جانب الحياء من فتياتنا، أمهات المستقبل، اللواتي من المفترض أن يحملن الأمانة، وأن ينقلن السلوك السوي الذي أمر به الإسلام إلي أبنائهم وبناتهن.

وعن ظاهرة الاختلاط بين البنين والبنات هذه يقول أحد الغيورين على مستقبل هذه الأمة ، وعلى دينها : « لقد حرص التعليم العلماني على إدخال البنات المسلمات إلى مدارسه ، وساعد على ذلك أن المسلمين لم ينتبهوا إلى فتح معاهد التعليم الديني للبنات المسلمات، بل لقد كان كثير من مدارس البنات في بعض البلاد الإسلامية، بل في دولة الخلافة الإسلامية، تابعة لمؤسسة دينية غير إسلامية(!!) يباشر فيها « المبشرون » تنصير الفتيات المسلمات، وكانت

الخطوة الأخطر هي إحداث الاختلاط بين الطلبة والطالبات داخل الجامعات العلمانية في أكثر البلاد الإسلامية، بل امتد الى الاختلاط في مرحلة الدراسة الابتدائية وأحيانا في المرحلتين الإعدادية والثانوية في فترة المراهقة وثورتها.(١٤)

حادي عشر : المحصلة النهائية :

وهذه هي النقطة قبل الأخيرة في هذه السلسلة من الأفكار حول الغزو الثقافي، وهي تتعلق بمحصلته الخطيرة التي يخرج بها الإنسان المسلم الذي تمكن منه ذلك المرض الخطير، ونقصد به .. الغزو الثقافي.

إن النتيجة المحزنة والمؤلمة في آن واحد هي « التسليم بالأستاذية للحضارة الغربية ، والتسليم بالأستاذية موقف ـ كما يقول التركي ـ ينشئه الذهول عن الرسالة الإسلامية العالمية التي تورث صاحبها أو حاملها الإحساس القوي العميق بأنه أستاذ العالم في العقائد والمبادئ والشرائع والأخلاق، كما ينشئه الخلط بين صحة العقيدة والتفوق المادي ، إذ يظن الظانون بأن المتفوق في الفيزياء متفوق بالضرورة ـ في كل شيئ ، حتى في الاعتقاد.. !!

إن هذا ليس صحيحًا على الإطلاق ، فرجل بسيط عادي في واحة من واحات الجزائر ، يحمل عقيدة التوحيد، يعد .. في ميزان الله عز وجل .. أكمل وأرشد ملايين الدرجات من جراح كبير لامع غير مسلم، يعيش في عاصمة دولة كبرى.(١٥)

ثاني عشر : كنا نتنادى :

منذ أيام الغزو العسكري المسلح، وحتى عهد قريب، كنا نتنادى فيما بيننا ويستعين بعضنا ببعض كي نواجهه، وكي نقضي على مخاطره، وفي أكثر من بلد من بلاد عالمنا الإسلامي استطعنا أن نحاصر نيرانه، وأن نقضي عليها،

---

(١٤) علي جريشة: مرجع سابق، ص ص ٣١٠-٣١١.

(١٥) عبدالله بن عبدالمحسن التركي: تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ص ١٥-١٦.

obeikandi.com

بفعل تكاتفنا وتناصرنا ووقوفنا مع بعضنا البعض ضده وضد كل ما يمثله.

هكذا فعلنا في الجزائر عندما اندلعت ثورتها ضد المستعمرين الفرنسيين ، في بداية الخمسينيات من هذا القرن، وللعلم فإن ثورات الجزائريين ضد الغزاة البغاة لم تتوقف منذ بداية الاحتلال في عام ١٨٣٢م، ولكن ثورته الأخيرة هذه هي التي استمرت بلا توقف، وبلا انقطاع ، حتى أرغمت فرنسا على الخروج من الجزائر مرغمة صاغرة ذليلة ، تجرجر أذيال العار والهزيمة . حقيقة دفع الشعب الجزائري المسلم أكثر من مليون شهيد، ولكنه نال استقلاله وحريته، وخلال هذه الثورة الأخيرة تلقى المعونات من إخوانه العرب والمسلمين، من كل مكان، وخاصة من مصر التي دفعت إليه بكميات هائلة من السلاح، ولم تبخل على أبنائه بالتدريب العسكري المكثف الذي مكنهم من النيل من جنود فرنسا وضباطها، فأسالوا دماءهم، وطالوا أرواح عشرات الألوف منهم، ولما لم تستطع فرنسا تحمل ذلك قررت الرحيل عن الجزائر بعد أن كانت تعتبر ذلك من رابع المستحيلات، بل وكانت تصر على أن التراب الجزائري الخصب هو امتداد للتراب الفرنسي، وأن الخطأ كان خطأ البحر المتوسط الذي فصل بينهما (!!!)، هكذا قال السياسيون الفرنسيون ، ومن بينهم الجنرال « شارل ديجول » نفسه ، ولكن عزة المسلمين، وبيعهم أنفسهم لله فرض عليهم أن ينصاعوا للحق مرغمين، بعد أن تنزل نصر الله على المؤمنين المجاهدين الصابرين.

وفي أفغانستان حدث الشيئ نفسه حينما اجتاحت القوات الشيوعية الملحدة الكافرة حدود ذلك البلد المسلم، بعد أن تأكد لقياداتهم أن الحكومة الشيوعية العميلة التي نصبوها على كراسي الحكم في العاصمة « كابول » لن تصمد أمام ضربات المجاهدين المسلمين الذين توافدوا من جميع أنحاء أفغانستان يبغون إزالة رجسهم ودنسهم حتى لا ينحرفوا بدفة مجتمعهم ضد دينه وعقيدته، ومن هنا لم تتردد « موسكو » في إصدار الأوامر لقواتها كي تجتاح حدود أفغانستان المسلم، وكي تقضي على القوات الإسلامية التي كانت قد بدأت تحيط بعاصمة بلادهم، وبدا - آنذاك - أن سقوطها في أيديهم قد أصبح وشيكًا.

وكشّر الدب السوفيتي الباغي عن أنيابه، ولم يخف أطماعه ، ودفع على الفور بأكثر من مائة ألف من قواته المدججة بأعتى أنواع الأسلحة التي عرفتها البشرية ، واجتاحت هذه القوات الحدود الأفغانية المسلمة ، تقتل وتدمر، وتخرب وتحرق ، وتمارس ألوانا من العنف والإرهاب ضد المجتمع المسلم في أفغانستان ، في كل شبر من أرضه، حتى في القرى الآمنة المسكينة، البعيدة عن الصراع والقتال حرقتها الدبابات والطائرات ، بل ومورست فيها أنواع من القتل والحرق الجماعي للبشر بصورة لم تعرفها البشرية حتى ولا على أيدي التتار والمغول، وذلك انتقامًا من تأييد أهلها للمجاهدين المسلمين من جانب وتخويفًا للآخرين حتى لا يمدوا لهم يد العون والمساعدة من جانب آخر.

وأمام هذه الموجات الإجرامية من العنف والرعب والإرهاب هجِّرت ملايين كثيرة من الأفغان ، خاصة من كبار السن والنساء والأطفال ، ولكن من ناحية أخرى بقي الشباب الذين هم في سن القتال، وجاءهم المدد من إخوة لهم، باتساع العالم الإسلامي توافدوا عليهم ينصرونهم ويؤيدونهم ويشدون من أزرهم.. بالمال والسلاح والذخيرة، وأكثر من ذلك بالأرواح والمهج، مثبتين بذلك وحدة الأمة الإسلامية وقوة عقيدتها، خاصة حين يعتدي عليها الكفار والمشركون، ولقد جاء المدد من كل حدب وصوب من بلاد العالم الإسلامي، من المجتمع المسلم في شبه الجزيرة العربية وخاصة من المملكة العربية السعودية، ومن الكويت وغيرهما، ومن مصر والجزائر والمغرب، وبطبيعة الحال من باكستان التي تحملت عبء الهجرة على الحدود ، بل وقاست بشاعة الانتقام الروسي حين أرادت موسكو أن تضغط عليهم ، أي على الباكستانيين، حتى يوقفوا تأييدهم للمجاهدين، وكان ذلك على شكل غارات بالطيران الروسي على حدوود أفغانستان نشرت الرعب والفزع، وقتلت الكثيرين من أبناء الشعبين الباكستاني والأفغاني، كما زرعت آلاف القنابل الموقوتة والألغام على الحدود.

ورغم كل ذلك ما توقف الجميع عن القتال، ولا عن التضحية والفداء يوما بعد آخر، على مدار سنوات طوال ، حتى أذن الله بالنصر للمسلمين، وفرضوا على الشيوعيين المتبجحين أن يخرجوا أذلة من أفغانستان وهم

صاغرون، وعلت كلمة الحق في أرجاء ذلك المجتمع المؤمن تدعو إلى الله، بعد أن توحد من خلف أفغانستان عدد كبير من دول العالم الإسلامي، وما كان لها أن تتوحد لولا الهجوم العسكري الشيوعي الباغي على مجتمع المسلمين هناك.(*)

هذان مثلان حيان من واقع حياة المسلمين المعاصرة، سقتهما كي يبينا تنادي المسلمين وتوحدهم أمام قضية العدوان المسلح على أراضي بعضهم، فهو إذن - الغزو المسلح - يحفز المسلمين للوقوف في وجهه، وللدفاع ضد عناصره، ولكن « الغزو الثقافي » الذي يتسلل إلى بلادنا وأبنائنا لا يستثير فينا شيئا من هذا، لأنه ينساح في نفوسنا وشخصياتنا بهدوء الأفاعي، وتدخل سمومه في دمائنا دون أن يتضح ذلك للكثيرين منا، ولا نشعر به ، أو بخطره ، حتى نفاجأ بالضحايا من بيننا وقد سقطوا صرعى أمام أعيننا دون أن نستطيع الوقوف معهم، أو علاجهم ، لأنه يكون حينئذ قد وصل الى النخاع في أجسامهم، والعياذ بالله، وحينئذ يعز العلاج ، ويعز الإنقاذ، وهذا هو مكمن الخطر في هذا « الغزو الثقافي ».. الكارثة.

(*) محمد عبدالعليم مرسي: أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.